وهي الحين . ومنه قيل : انتظرتك مليّا[1] .

إنّ كيدي متين : الكيد هو المكر . وقوله متين ، يعني قويّ شديد[2] .

الآية الكريمة مرتبطةٌ بسابقتها ومكملةٌ معناها ومصرّحةٌ بالعاقبة السّيّئة لأولئك المكذّبين الّذين استدرجهم الله تعالى من حيث لا يعلمون . إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى الّذي يفتح للمكذّبين استدراجاً أبواب كلّ شيءٍ يمهلهم جلّ وعلا إلى حين ، ويتركهم دون عقوبةٍ فُسحةً من الوقت ، لعلّهم في تلك الأثناء يثوب إليهم رشدهم ويتوبون إلى الله تعالى توبةً نصوحا . وبهذا يكون الإملاء أو الإمهال قد أدّى الغرض منه . أمّا إذا ظنّ المكذّبون أنّ الإمهال إهمالٌ من الله تعالى وأنّ الدّهر تاراتٌ فيها الحسنة من سعة رزق وإسباغ عافية وراحة بال وفيها السّيّئة من ضنك عيش وضرّاء وشدائد ، فإنّ مصير هؤلاء أن يأخذهم الله تعالى أخذ عزيزٍ مقتدر ، ووقتها يتبيّنون يقيناً أنّ كيد الله تعالى متين ، ومكره قويّ ، وعذابه أليم ، وأخذه شديد .

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾

سبب النّزول :

عن قتادة قال : ذُكِر لنا أنّ نبيّ الله صلّى الله عليه وسلّم كان على الصّفا فدعا قريشاً فجعل يُفَخِّذهم[3] فَخِذاً فَخِذاً يا بني فلان يا بني فلان فحذّرهم بأس الله ووقائع الله فقال قائلهم : إنّ صاحبكم هذا لمجنون بات يصوّت إلى الصّباح أو حتّى أصبح فأنزل الله تبارك وتعالى الآية الكريمة[4] .

تدعو الآية الكريمة كفّار مكّة في المقام الأوّل إلى أن يتفكّروا في أمر محمّد صلّى الله عليه وسلّم وإلى أن يتدبّروا ما يقولونه عنه عليه الصّلاة والسّلام وإلى أن يزنوا كلامهم بميزان

---

(١) تفسير الطّبريّ ٩٢/٩ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٩٢/٩ .

(٣) فخّذ قومه : دعاهم فَخِذاً فَخِذاً أي حيّاً حيًّا .

(٤) تفسير الطّبريّ ٩٣/٩ .

العقل والمنطق لا أن يكيلوا التّهم جزافاً فينسبوه تارةً إلى الجنون وأخرى إلى الشّعر وثالثة إلى الكهانة ورابعة إلى الكذب وهكذا . وممّا جاء في اتهامهم له عليه الصّلاة والسّلام بالجنون قوله تعالى في سورة الحجر[1] : ﴿ وقالوا يا أيّها الّذي نُزّل عليه الذّكر إنّك لمجنون ﴾ .

إنّ الآية الكريمة تدعو كفّار مكّة إلى أن يتفكّروا في دعوة محمّد صلّى الله عليه وسلّم وفي كلامهم عنه واتّهامهم له عليه الصّلاة والسّلام ، والآية الكريمة تنفي عنه عليه الصّلاة والسّلام الجنون وتقرّر أنّه نذيرٌ لهم بين يدي عذابٍ شديد مبينٌ في إنذاره ودعوته .

أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾

بعد أن دعت الآية الكريمة السّابقة كفّار مكّة إلى أن يتفكّروا في أمر محمّد صلّى الله عليه وسلّم وفيما يدعوهم إليه وفي أمرهم وفي كلامهم عنه واتّهامهم له ، تدعو هذه الآية الكريمة كفّار مكّة إلى أفقٍ أرحب وميدانٍ أوسع يعتبر كلٌّ منهما استمراراً للدّعوة السّابقة وامتداداً للتّفكر والتّدبّر وتحذيراً لهم من ذهاب الفرصة إلى غير رجعة ووجودهم أنفسهم بعد الموت في جهنّم وبئس القرار .

تنكر الآية الكريمة كسابقتها ألاّ ينظروا نظر تأمّل وتدبّر في ملكوت السّماوات والأرض ، وفي ملك الله سبحانه وتعالى العظيم فيهما ، وفي سلطانه جلّ وعلا عليهما وقهره لهما ، كما تنكر عليهم ألاّ ينظروا نظر تفكّر وتدبّر فيما خلق الله سبحانه وتعالى في السّماوات والأرض من شيءٍ كبر أو صغر ، جلّ أو حقر ، كي ينتهوا إلى هذه النتيجة : ﴿ ما ترى في خلق الرّحمن من تفاوت ﴾[2] وكي يهتفوا لعِظَم مارأوا وصحّة ما ارتأوا قائلين : ﴿ ربّنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النّار ﴾[3] كما تنكر الآية الكريمة على كفّار مكّة ألاّ ينظر في أنّه عسى أن يكون قد اقترب أجلهم وأزف وقت رحيلهم من هذه الحياة الأولى

---

(١) الآية ٦ .

(٢) سورة الملك ٣ .

(٣) سورة آل عمران ١٩١ .

كافرين مكذّبين مستكبرين عن عبادة الله تعالى صادّين عن سبيله جلّ وعلا فيكون مصيرهم النّار وبئس القرار والعياذ بالله .

وفي التّذييل : ﴿ فبأيّ حديثٍ بعده يؤمنون ﴾ تنكر الآية الكريمة في أسلوب الاستفهام ألاّ يؤمنوا بهذا الكتاب العزيز الّذي لا يخفى عليهم إعجازه وهم أهل الفصاحة وأرباب البيان ، ولا يغيب عنهم قدرته الفائقة على إرضاء كلّ عقلٍ بفصوص حكمه ، وإشباع كلّ نفسٍ بتدفّق مائه . إنّ كفّار مكّة حينما لايؤمنون بهذا الكتاب العزيز الّذي تحدّى الله سبحانه وتعالى الثّقلين بأن يأتوا بمثله أو حتّى بسورة واحدةٍ من مثله فعجزوا وفي مقدّمة هؤلاء كفّار مكّة الّذين تحقّقت لهم من المغريات بقبول التّحدّي ما لم يتحقّق ولن يتحقّق لسواهم ، إنّ كفّار مكّة حينما لا يؤمنون بهذا الكتاب ولا يصدّقون بهذا الحديث فبأيّ حديثٍ بعده يؤمنون ! .

إنّ كفّار مكّة لو ركبوا رءوسهم حتّى ماتوا فإنّ مصيرهم إلى النّار وبئس القرار .

مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

يعمهون : العَمَه التّردّد في الأمر من التّحيّر[1] .

إنّ الّذين يجاهدون في سبيل الله تعالى باحثين عن الحقّ والحقيقة سيهديهم الله سبحانه وتعالى سبل السّلام بنصّ القرآن الكريم ، وإنّ الّذين يعرضون عن آيات الله تعالى وينصرفون عنها سيصرف الله تعالى قلوبهم عن الحقّ ويزيد بصيرتهم عمىً إلى عماها بنصّ القرآن الكريم كذلك . وإنّ هذه الآية الكريمة الّتي نحن بصددها تتحدّث عن أولئك الضّالّين من كفّار مكّة وسواهم الّذين أعرضوا عن آيات الله تعالى والّذين ما زادهم نزول المزيد من آي الذّكر إلاّ نفوراً واستكباراً ، وتقرّر الآية الكريمة أنّ من يضلله الله سبحانه وتعالى فلا هادي له بعد أن زاده الله تعالى ضلالاً إلى ضلاله وعمىً إلى عماه .

وتكون الثّمرة النّكدة لتخلّي الله سبحانه وتعالى عن أولئك الضّالّين الّذين زادهم الله تعالى ضلالاً إلى ضلالهم أنّهم في طغيانهم يتردّدون وفي ضلالهم يتحيّرون ، وفي شقاوتهم

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ « عمه » ٣٤٨ .

يتقلّبون . لا يستطيعون سبيلاً إلى هداية ، ولا يجدون عوناً على خير ، ويظلّ الضّالّون هكذا تتقاذفهم شياطين الإنس والجنّ حتّى تتوفّاهم ملائكة العذاب يضربون وجوههم وأدبارهم والعياذ بالله .

عِلمُ السَّاعَةِ عِندَ اللَّهِ تَعَالَى وَحدَهُ

وَمَا مُحَمَّدٌ إلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ

الآيتان (١٨٧، ١٨٨)

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

أيّان : معنى أيّان متى في كلام العرب[١] .

مرساها : قيامها[٢] عن ابن عبّاس : منتهاها . أي متى محطّها وأيّان آخر مدّة الدّنيا الّذي هو أوّل وقت السّاعة[٣] .

لا يجلّيها لوقتها : أي لا يعلم جليّة أمرها ومتى تكون على التّحديد ، لا يعلم ذلك إلاّ هو تعالى[٤] .

ثقلت في السّماوات والأرض : عن قتادة قال : ثقل علمها على أهل السّماوات والأرض أنّهم لا يعلمون . قال معمر قال الحسن : إذا جاءت ثقلت على أهل السّماوات والأرض يقول كبرت عليهم . وعن ابن عبّاس قال : ليس شيء من الخلق إلاّ يصيبه من ضرر يوم القيامة[٥] لا تأتيكم إلاّ بغتة : لا تجيء السّاعة إلاّ فجأة لا تشعرون بمجيئها[٦] ويبغتكم قيامها وتأتيكم على غفلة[٧] .

كأنّك حفيّ عنها : مبالِغٌ في السّؤال عنها[٨] عن مجاهد : كأنّك حفيٌّ عنها استحفيت عنها السّؤال حتّى علمتها[٩] .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٩/٩٤ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٩/٩٤ .
(٣) تفسير ابن كثير ٢/٢٧١ .
(٤) تفسير ابن كثير ٢/٢٧١ .
(٥) انظر تفسير ابن كثير ٢/٢٧١ وتفسير الطّبريّ ٩/٩٤ ، ٩٥ .
(٦) تفسير الطّبريّ ٩/٩٥ .
(٧) تفسير ابن كثير ٢/٢٧١ .
(٨) الجلالين .
(٩) تفسير الطّبريّ ٩/٩٦ .

تبيّن الآية الكريمة أنّ كفّار مكّة على سبيل الاستبعاد والإنكار يسألون المصطفى صلّى الله عليه وسلّم عن وقت قيام السّاعة ونهاية هذه الحياة الأولى وبداية الأخرى . وتأمر الآية الكريمة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أن يقول لهم : إنّما علم السّاعة عند ربّي وحده لا شريك له . وانظر إلى لفظ الرّبّ الّذي يُستعمل في مواقف الخصوص وحينما يكون الجوّ عابقاً بشذا الرّضا والامتنان والشّكر للمنعم جلّ وعلا .

وتقرّر الآية الكريمة أنّ السّاعة لا يجلّيها لوقتها إلاّ هو جل وعلا ولا يظهرها على حقيقتها وجليّة أمرها إلاّ هو عزّ وجلّ ، كما تقرّر الآية الكريمة أنّ السّاعة ثقلت في السّماوات والأرض وكبرت على أهل السّماوات والأرض لأنّ السّاعة إذا قامت أصابت بضررها وأذاها كلّ أحدٍ وكلّ شيء ، كما تقرّر الآية الكريمة أنّ السّاعة لا تأتي إلاّ بغتة ولا تقوم إلاّ فجأة . وانظر إلى جملة « تأتي » الّتي لا تستعمل في القرآن الكريم إلاّ دليلاً على البعد . ويصحّ أن يكون المراد هنا البعد الزّمانيّ من زاوية المنكرين لوجودها المستبعدين مجيئها ، ويصحّ أن يكون المراد بالبعد هنا البعد الزّمانيّ الّذي يكون بعده قيام السّاعة . ومن البيّن أنّ كلاًّ من البعدين يتعلّق على التّوالي بكلٍّ من الفريقين الكافرين والمؤمنين .

ويتكرّر في الآية الكريمة القول : ﴿ يسألونك ﴾ وفي ذلك دلالةٌ على إلحاح القوم على السّؤال وإلحافهم فيه ، وفي ذلك توطئةٌ لمجيء القول ﴿ حفيّ ﴾ بمعنى المبالغة في السّؤال دليلاً على الاهتمام والاحتفاء بها وذلك في القول : ﴿ يسألونك كأنّك حفيّ عنها ﴾ .

ومن البيّن أنّنا بصدد السّؤال وبصدد الاحتفاء ، ومن البيّن أنّ السّؤال يرتبط به حرف الجرّ عن ، وأنّ الاحتفاء يرتبط به حرف الجرّ الباء . أمّا الدّليل على ارتباط حرف الجرّ عن بالسّؤال فإنّه موجودٌ في الآية الكريمة : ﴿ يسألونك عن السّاعة أيّان مرساها ﴾ وفي هذا دليلٌ من الآية الكريمة على أنّ حرف الجرّ عن مرتبطٌ بالسّؤال في القول : ﴿ يسألونك كأنّك حفيٌّ عنها ﴾ والمعنى : يسألونك عنها كأنّك حفيّ .

وأمّا الدّليل على ارتباط حرف الجرّ الباء بالاحتفاء ففي مثل قوله تعالى من سورة مريم[1] : ﴿ قال سلامٌ عليك سأستغفر لك ربّي إنّه كان بي حفيّا ﴾ ومن البيّن أنّ حرف الجرّ الباء والضّمير المتّصل به العائد إلى السّاعة قد حذفا في الجزئيّة الكريمة ، وفي الوقت

---

(١) الآية ٤٧ .

ذاته قام حرف الجرّ عن واسم الضّمير العائد إلى السّاعة بسبب تأخّرهما عن موضعهما بدور الجار والمجرور ﴿ بها ﴾ وكأنّ أصل الكلام : يسألونك عنها كأنّك حفيٌّ بها . وإنّ براعة النّظم في الجزئيّة الكريمة وإعجازه جعلا الجارّ والمجرور الواحد ﴿ عنها ﴾ يقوم باقتدار بدور حرفي جرّ ومجرورين اثنين . ومن البيّن أنّنا بصدد مظهرٍ من مظاهر إعجاز القرآن الكريم في مجال البلاغة بالحذف أو الإيجاز .

وعلى غرار أمر المصطفى صلّى الله عليه وسلّم ، إثر السّؤال الأوّل ، بأن يقول للكافرين جواباً على سؤالهم ﴿ قل ﴾ يؤمر المصطفى صلّى الله عليه وسلّم إثر السّؤال الآخر بالشّيء ذاته ﴿ قل ﴾ .

وحينما ننظر إلى القولين نتبيّن وجه الشّبه الكبير بينهما ، كما نتبيّن أنّ الفروق الطّفيفة بينهما عميقة المغزى جليلة الخطر .

هذا هو القول الأوّل : ﴿ قل إنّما علمها عند ربّي ﴾

وهذا هو القول الآخر : ﴿ قل إنّما علمها عند الله ﴾ .

لقد عرفنا ارتباط لفظ الرّب بمواقف الخصوص والرّضا والبهجة .

أمّا لفظ الجلالة ﴿ الله ﴾ فإنّه يرتبط بمواقف العموم . وممّا يقوّي الخصوص بشأن الرّب الإضافة في القول : ﴿ قل إنّما علمها عند ربّي ﴾ والمعروف أنّ الضّمير يعود إلى المصطفى صلّى الله عليه وسلّم .

ومن البيّن تمشّي لفظ الرّبّ مع السّؤال الأقرب إلى الخصوص .

ومن البيّن تمشّي لفظ الجلالة ﴿ الله ﴾ مع العموم وكثرة السّؤال والإلحاف فيه والإلحاح كرّاتٍ ومرّات . وإنّ للفظ ﴿ حفيّ ﴾ دوراً في المساعدة على هذا النّوع من الفهم ، كما أنّ للقول : ﴿ أكثر النّاس ﴾ دوراً في تقوية هذا العموم . وإنّ هذا القول : ﴿ ولكنّ أكثر النّاس لا يعملون ﴾ يقرّر أنّ أكثر النّاس لا يعلمون أنّ علم السّاعة عند الله تعالى وحده لا شريك له ، وأنّ المصطفى صلّى الله عليه وسلّم لا يعلم إلاّ ما علّمه الله تعالى ، وأنّ علم السّاعة لم يهبه الله تعالى لأيّ مخلوق . روى البخاريّ عن أبي هريرة أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : لا تقوم السّاعة حتّى تطلع الشّمس من مغربها فإذا طلعت ورآها النّاس آمنوا أجمعون فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً . ولتقومنّ السّاعة وقد نشر الرّجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا

يطويانه . ولتقومنّ السّاعة وقد انصرف الرّجل بلبن لقحته[1] فلا يطعمه . ولتقومنّ السّاعة وهو يُليط[2] حوضه فلا يسقى فيه . ولتقومنّ السّاعة والرّجل قد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها[3] .

قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٨﴾

الآية الكريمة استمرارٌ للجواب الّذي أُمِر المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أن يقوله للّذين يسألونه عليه الصّلاة والسّلام عن وقت قيام السّاعة بدليل ابتداء الآية الكريمة بجملة : ﴿ قل ﴾ وهي الّتي جاءت مرّتين اثنتين في الآية الكريمة السّابقة .

إنّ الآية الكريمة تأمر المصطفى صلّى الله عليه وسلّم بأن يقول للّذين يسألونه عليه الصّلاة والسّلام عن السّاعة : لا أملك لنفسي نفعاً أجلبه وأقرّبه ولا ضرّاً أدفعه وأبعده إلاّ ماشاء الله تعالى لي من خيرٍ أو شرّ ، من نفعٍ أو ضرّ ، فإنّي أنا العبد الّذي لا حول لي ولا قوّة إلاّ بالله تعالى العليّ العظيم .

وتأكيداً لمقام عبوديّة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم يؤمر أن يقول للسّائلين : ولو كنت أعلم ما غاب عنّي : ﴿ لاستكثرت من الخير وما مسّني السّوء ﴾ ولجلبت كلّ نفعٍ لي من صحّة ومال وراحة بال وسعادةٍ وما إلى ذلك ، ولدفعت كلّ ضرّ بعيداً عنّي . ولكنّي بشرٌ وعبدٌ من عباد الله تعالى يجوز عليّ ما يجوز على كلّ البشر إلاّ أنّ الله سبحانه وتعالى عصمني من النّاس .

وتأمر الآية الكريمة أخيراً المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أن يقول للسّائلين : ما أنا إلاّ نذيرٌ للكافرين بالنّار وبشيرٌ للمؤمنين بالجنّة ، ولا أملك سوى البلاغ أمّا الحساب فعلى الله تعالى وحده لا شريك له .

---

(١) اللّقحة بكسر اللّام وفتحها : النّاقة الحلوب الغزيرة اللّبن .

(٢) اللِّياط بكسر اللّام : الكلس والجِصّ وألاطه ألصقه .

(٣) تفسير ابن كثير ٢/٢٧١ .

الله تعالى هو الخالق القادر على كل شيء والآلهة الأخرى مخلوقة عاجزة مقهورة

الآيات (١٨٩ - ١٩٨)

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾

هو الّذي خلقكم من نفسٍ واحدة : يعني بالنّفس الواحدة آدم[١] .

وجعل منها زوجها : حوّاء فجعلت من ضِلَعٍ من أضلاعه[٢] مِنْ شقّه الأيسر كما روي عن ابن عبّاس[٣] .

ليسكن إليها : ليأوى إليها لقضاء الحاجة ولذّته[٤] وليألفها[٥] .

فلمّا تغشّاها : أي وطئها[٦] وجامعها[٧] يقال : غَشِيه غِشاوةً وغِشاءً أتاه إتيان ما قد غشيه أي ستره . ويقال : تَغَشّاه وغَشّيتُه كذا . وغَشَيْت موضع كذا أتيتُه وكُنى بذلك عن الجماع[٨] .

حملت حملاً خفيفاً : وذلك أوّل الحمل لا تجد المرأة له ألماً إنّما هي النّطفة ثمّ العلقة ثمّ المضغة[٩] .

فمرّت به : ذهبت وجاءت لخفّته[١٠] وقامت به وقعدت[١١] .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٩٧/٩ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٩٧/٩ .
(٣) تفسير الطّبريّ ١٥٠/٤ .
(٤) تفسير الطّبريّ ٩٧/٩ .
(٥) تفسير ابن كثير ٢٧٤/٢ .
(٦) تفسير ابن كثير ٢٧٤/٢ .
(٧) الجلالين .
(٨) مفردات الرّاغب الأصفهاني « غشى » ٣٦١ .
(٩) تفسير ابن كثير ٢٧٤/٢ .
(١٠) الجلالين .
(١١) تفسير الطّبريّ ٩٧/٩ .

فلمّا أثقلت : فلمّا صار ما في بطنها من الحمل الّذي كان خفيفاً ثقيلاً ودنت ولادتها . يقال منه : أثقلت فلانة إذا صارت ذات ثِقل[1] بحملها[2] .

الآية الكريمة الأولى ذات شَبَهٍ بالآية الكريمة الأولى من سورة النّساء قال تعالى : ﴿ يا أيّها النّاس اتّقوا ربّكم الّذي خلقكم من نفسٍ واحدةٍ وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً . واتّقوا الله الّذي تساءلون به والأرحام . إنّ الله كان عليكم رقيباً ﴾ .

إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذي خلقنا من نفسٍ واحدة ، يعني آدم عليه السّلام ، ليسكن آدم عليه السّلام إلى حوّاء عليها السّلام ويهدأ ، يهنأ بقربها ويسعد . ويلاحظ أنّ آية سورة النّساء استعملت جملة خلق في حقّ حوّاء عليها السّلام ، في حين استعملت آية سورة الأعراف جملة جعل . ومعروف أنّ جملة خلق ترتبط بالإيجاد من العدم وأنّ جملة جعل ترتبط بالتّصْيير والتّحويل . فكأنّ آية سورة النّساء نظرت إلى حوّاء عليها السّلام من زاوية خلقها على غير مثالٍ سابق ، وكأنّ آية سورة الأعراف نظرت إلى حوّاء عليها السّلام من زاوية جعلها أنثى من ضلع آدم عليه السّلام المخلوق على غير مثالٍ سابق . والله تعالى أعلم .

فلمّا تغشّى آدم عليه السّلام حوّاء عليها السّلام وستر آدم عليه السّلام جسد حوّاء عليها السّلام بجسده وغطّاها ، وكل ذلك كنايةٌ لطيفةٌ عن الجماع إذ يُعَبّر بالتّغطية والسّتر عن العمليّة الّتي يُفْضِي فيها كلٌّ من الزّوجين إلى الآخر ويصل منه إلى أعمق أعماقه ، فلمّا تغشّى آدم عليه السّلام حوّاء عليها السّلام وخالطها وجامعها حملت حملاً خفيفاً لطيفاً هيّناً ليّناً فمرّت به ذاهبةً وآيبة ، قائمةً وقاعدة ، لخفّة الحمل في أوّله وسهولته . فلمّا أثقلت حوّاء عليها السّلام ، وتشارك حوّاء في هذه الأحوال كلّ أنثى ، ويشارك آدم عليه السّلام في هذه الأحوال كلّ ذكر ، فلمّا أثقلت وصار ما في بطنها ثقيلاً ، وما في رحمها كبيراً كامل الخلق ، وحان وقت المخاض ، ودنا زمن الوضع ، دعا الزّوجان الله سبحانه وتعالى ربّهما ، الّذي غمرهما بفضله ، وربّاهما بنعمه ، ونشّأهما بآلائه ، لئن آتيتنا ياربّنا ولداً صالحاً في الخَلق وفي الخُلُق لنكوننّ من الشّاكرين لك ياربّنا العابدينك وحدك لا شريك لك .

---

(١) الثِّقل بفتح القاف ضدّ الخفّة وبسكون القاف الحِمل الثّقيل .

(٢) تفسير الطّبريّ ٩٨/٩ .

ويلاحظ أنّ الآية الكريمة في عجزها كما صحّ أنّها تتحدّث عن آدم وحوّاء عليهما السّلام صحّ أنّها تتحدّث عن كلّ زوجين . وإنّ الآية الكريمة التّالية لتؤيّد هذه النّظرة إذ تقرّر أنّ هذين الزّوجين حينما آتاهما الله تعالى ولداً صالحاً واستجاب الله تعالى دعاءهما جعلا له جلّ وعلا شركاء فيما آتاهما كأن سمّيا الولد عبدالعُزّي وعبد مناة وما إلى ذلك فتعالى الله سبحانه وتعالى عمّا يشركون وتنزّه عمّا يصفون .

أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾

تنكر الآية الكريمة الأولى على المشركين إشراكهم في العبادة مع الله تعالى الّذي له وحده لاشريك له الخلق والأمر ، ما لا يخلق شيئاً مطلقاً ، ولو كان هيّناً كالذّبابة مثلاً ، وهم مخلوقون لله سبحانه وتعالى ، وقد قال عزّ من قائل[1] : ﴿ ما اتّخذ الله من ولدٍ وما كان معه من إلهٍ إذاً لذهب كلّ إلهٍ بما خلق ولعلا بعضهم على بعض . سبحان الله عمّا يصفون . عالم الغيب والشّهادة فتعالى عمّا يشركون ﴾ .

بل إنّ هذه الآلهة المزعومة لأهون شأناً ، إذ إنّها لا تستطيع أن تنصر عابديها ، بل إنّها لا تستطيع أن تنصر نفسها . وهذا المعنى هو الّذي تقرّره الآية الكريمة الثّانية .

بل إنّ هؤلاء المعبودين من دون الله تعالى إن تدعوهم أنتم إلى الهدى لا يتّبعوكم لأنّها جمادات أو نباتات ليس لها من العقل شيء فكيف تُرْجي هدايتها وهي الّتي لا تفقه قولاً ولا تعرف هدىً ولا ضلالة ، ويستوى في حقّها من يدعوها ومن يصمت ، من يناديها ومن يسكت . إنّ هذه المعاني هي الّتي قرّرتها الآية الكريمة التّالية .

ولايكاد العجب ينتهي حينما يتبيّن أنّ الّذين أكرمهم الله تعالى بنعمة العقل هم الّذين ينادون ويَدْعون ويَعْبُدون ما لا عقل له ! .

---

(١) سورة المؤمنون ٩١ ، ٩٢ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾

وأحياناً يكون المعبودون من دون الله تعالى من البشر الّذين كرّمهم الله تعالى وأسبغ عليهم نعمه ظاهرةً وباطنةً ومنها نعمة العقل . وهؤلاء المعبودون فريقان . فريقٌ ليس راضياً عمّا يقوم به المشركون بل لا علم له بما يقومون به ، والوزر كلّ الوزر على المشركين وحدهم . وفريقٌ آخر هو فريق الطّواغيت الّتي ترضى عن الشّرك وتحبّذه ، تدعو إليه وتباركه . وهؤلاء مع عابديهم حصب جهنّم وحطبها ووقودها .

والآية الكريمة الّتي نحن بصددها تنبّه العابدين إلى حقيقة هؤلاء المعبودين المنكرين على العابدين والرّاضين عنهم . إنّ هؤلاء المعبودين من دون الله تعالى عبادٌ لله تعالى مثل العابدين سواءً بسواء لا يفوتونهم بشيء ، ولا يفوقونهم باختصاص . إنّ الجميع عبادٌ لله تعالى يخضعون لمشيئته جلّ وعلا وإرادته طوعاً في حقّ المؤمنين وكرهاً في حقّ الكافرين .

إنّ العابدين إن كانوا في شكّ ممّا بيّنت الآية الكريمة وقرّرت فليدعوا أولئك العباد ، وإنّ المعبودين عليهم أن يستجيبوا للعابدين إن كان العابدون صادقين في أوهامهم غير كاذبين في ادّعاءاتهم وقد قال تعالى[1] : ﴿ يا أيّها النّاس ضُرِب مثلٌ فاستمعوا له . إنّ الّذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذّباب شيئاً لا يستنقذوه منه . ضعف الطّالب والمطلوب ﴾ .

أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾

ثمّ كيدون فلا تُنْظِرون : يقول : فلا تؤخّرون بالكيد والمكر ولكن عجّلوا بذلك[2] .

---

(١) سورة الحجّ ٧٣ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٩/١٠٣ .

الآية الكريمة بمثابة البرهان الفعليّ والتّطبيق العمليّ للمعنى الّذي تضمّنته الآية الكريمة السّابقة . إنّ الآية الكريمة تسأل في إنكار : ألأولئك المعبودين من دون الله تعالى أرجلٌ يمشون بها في مصالح معبوديهم أو معبوديها ! إنّ لسان الحال يقول : لا .

ألأولئك المعبودين أيدٍ يبطشون بها فيدفعون بها الضرّ عن عابديهم ويجلبون لهم النّفع ! إن لسان الحال يقول : لا .

ألأولئك المعبودين أعينٌ يبصرون بها كي يرشدوا عابديهم إلى طريق الصّواب وإلى الصّراط المستقيم وإلى نور الهداية ! إنّ لسان الحال يقول : لا .

ألأولئك المعبودين آذانٌ واعيةٌ يسمعون بها صوت الحقّ سماع تدبّر كي يرشدوا عابديهم عليه ويهدوهم إليه ! إنّ لسان الحال يقول : لا .

إنّ المعبودين إن كانوا عقلاء هم على علمٍ بأنّ العجز دأبهم وقلّة الحيلة ديدنهم .

وإنّ المعبودين إن كانوا غير عقلاء فالبليّة أعظم والمصيبة أكبر .

واستمراراً لمجموعة الأوامر في هذه المناسبة للمصطفى صلّى الله عليه وسلّم تأمر الآية الكريمة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أن يقول لأولئك المضلّلين المخدوعين إنّ الدّليل على صدقي وإنّ البرهان على عجز المعبودين من دون الله تعالى عن جلب أدنى نفع ودفع أدنى ضرّ أن تدعوا شركاءكم ومعبوديكم من دون الله تعالى كي ينالوني بأيّ صنوف الكيد دون إمهال ، وكي يلحقوا بي أيّ أنواع الأذى دون إنظار .

إنّ كلّ المعبودين من دون الله تعالى أعجز من أن يدفعوا الضّرّ عن أنفسهم أو أن يجلبوا لها النّفع ومن باب الأولى هم أعجز عن فعل شيءٍ من ذلك في حقّ سواهم .

إنّ هذه الحقائق لا تزداد بمرور اللّيالي والأيّام إلاّ رسوخاً ووضوحاً . ولله الحمد والمنّة .

إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾

وفي مقابل عجز الآلهة المزعومة الفاضح هنالك القدرة المطلقة للخالق البارىء المصوّر . وها هي ذي الآية الكريمة تذكر القول الموصول ذكره على لسان المصطفى صلّى الله عليه وسلّم وتقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى القادر على كلّ شيء هو وليّ المصطفى صلّى

الله عليه وسلّم ومؤيّده وناصره ، وهو جلّ وعلا الّذي يتولّى الصّالحين ، يدبّر شئونهم ، ويرعى مصالحهم ، ويسدّد خطاهم ، ويكلؤهم بعين عنايته ورعايته ، ويأخذ بأيديهم إلى النّجاح والفلاح والنّصر .

وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾

وفي مقابل تقرير الآية الكريمة السّابقة القدرة المطلقة للذّات العليّة تقرّر الآيتان الكريمتان العجز المطلق للآلهة المزعومة المعبودة من دون الله تعالى .

إنّ الآية الكريمة الأولى تقرّر أنّ الأصنام الّتي تدعونها يا كفّار مكّة في المقام الأوّل من دونه عزّ وجلّ لا يستطيعون نصركم لو أنّكم سألتموها النّصر ولا يستطيعون نصر أنفسهم وهذه الحال الأخيرة آكد في العَجْز وقلّة الحيلة .

والآية الكريمة الأخرى تقرّر أنّ هذه الأصنام لو أنّ عابديها وسواهم دعوها إلى الهدى فإنّها لا تسمع سماعاً مجرّداً فكيف بالسّماع الواعي .

ومن أكبر الأدّلة على خواء هذه الأصنام من كلّ خير وعجزها عن جلب أدنى نفع ودفع أدنى ضرّ أنّ هذه الأصنام الّتي تأخذ أشكال المخلوقات تراها تنظر إليك شكلاً ومنظراً بعيونها المفتوحة ، وهي في الحقيقة لا تبصر أيّ شيءٍ ولا تراه ، لأنّ هذه العيون تقف عند مجرّد النّظر إلى الشّيء ولا تتعدّاه . يقال : نظرتُ إلى كذا إذا مددت طرفك إليه ، رأيته أو لم تره[1] وحينما تقف عند النّظر إلى الشيء تعجز عن البصر الّذي يطلق على القوّة الّتي في العين النّاظرة[2] .

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني « نظر » ٤٩٧ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني « بصر » ٤٩ .

والحقيقة أنّ أعين تلك الأصنام المفتوحة شكلاً ليست عاجزةً فقط عن الإبصار وإدراك حقيقة من ينظر إليها وتنظر إليه ، وإنّما هي عاجزةٌ عما هو قبل ذلك وأبسط من ذلك وهو النّظر مجرّداً لأنّ هذه الأصنام جمادات صنعها الصّانعون بأيديهم . إنّ هذه الأصنام عاجزةٌ عن البصر لأنّها لا حياة فيها ، وإنّ هذه الأصنام عاجزةٌ عمّا دون ذلك وهو النّظر إلى الشّيء ، سواءٌ أكان ذلك الشّيء يُرَى أم لا يُرَى . إنّك أيّها النّاظر إليها تحسبها تنظر إليك وتراك بينما هي لا تنظر أصلاً فكيف تبصر وكيف ترى ! .

ولا يكاد العجب ينتهي من الضّالّين الّذين يعبدون هذه الأصنام العاجزة والأوثان المقهورة ويشركونها في العبادة مع الله تعالى ربّ كلّ شيءٍ ومليكه .

من توجيهات القرآن الكريم

الهدى والرحمة للمؤمنين

الآيات (١٩٩ - ٢٠٦)

خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾

وأمر بالعرف : العُرْف في كلام العرب مصدر في معنى المعروف . يقال : أوليته عرفاً وعارفاً وعارفة كلّ ذلك بمعنى المعروف[١] عن عبدالله بن الزّبير قال : أمر الله نبيّه صلّى الله عليه وسلّم أن يأخذ العفو من أخلاق النّاس[٢] .

تأمر الآية الكريمة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم الأسوة الحسنة لنا نحن المسلمين أن يأخذ من أخلاق النّاس العفو وهو ما يسهل قصده وتناوله[٣] والفضل الّذي لا يجهدهم ولا يشقّ عليهم وأن يترك ما وراء ذلك فلا يبحث عنه ولا يستقصى . كما تأمره عليه الصّلاة والسّلام أن يأمر بالمعروف شرعاً وعقلاً ، ومن البيّن أنّ من يأمر بمعروف يأتيه هو ابتداءً ، وأن يعرض عن الجاهلين وأن يصفح الصّفح الجميل عن السّفهاء فلا يبادلهم سفهاً بسفه ولا حمقاً بحمق .

عن أبيّ قال : لمّا أنزل الله على نبيّه صلّى الله عليه وسلّم : خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين . قال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم : ما هذا يا جبريل ؟ قال : إنّ الله يأمرك أن تعفو عمّن ظلمك وتعطي من حرمك وتصل من قطعك[٤] .

وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾

النّزغ : دخولٌ في أمرٍ لإفساده[٥] .

فاستعذ بالله : فاستجر بالله[٦] .

ممّا أمرت به الآية الكريمة السّابقة الإعراض عن الجاهلين وترك مؤاخذتهم

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٠٦/٩ وصحيح البخاريّ ٧٦/٦ .

(٢) صحيح البخاريّ ٧٦/٦ .

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ « عفا » ٣٣٩ .

(٤) تفسير الطّبريّ ١٠٥/٩ .

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهاني « نزغ » ٤٨٨ .

(٦) تفسير الطّبريّ ١٠٦/٩ .

واحتساب ذلك عند الله تعالى . وهذه الآية الكريمة ترشد المسلم الّذي له في المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أسوةٌ حسنةٌ إلى ما يقوله حينما يصرفه عن الخير صارفٌ من الشّيطان الرّجيم ، وحينما يسوّل له الشّيطان الرّجيم ويزيّن له الانتقام ومبادلة الجهل بجهلٍ مثله والسّفه بسفهٍ مثله . إنّ على المسلم أن يفرّ إلى أحكم الحاكمين وأن يستعيذ به جلّ وعلا ويستجير من الشّيطان الرّجيم اللّعين الطّريد من رحمة الله تعالى . إنّه جلّ وعلا سميعٌ لكلّ قول ، بما في ذلك نزغ الشّيطان الرّجيم ، عليمٌ بكلّ نيّةٍ وفعل بما في ذلك صرف الشّيطان للمسلم عن كلّ خير لأنّه عليه لعنة الله تعالى أبديّ العداوة للإنسان .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾

إذا مسّهم طائفٌ من الشّيطان : إذا ألمّ بهم طيفٌ من الشّيطان من غضبٍ أو غيره ممّا يصدّ عن واجب حقّ الله عليهم[١] .

تذكّروا : تذكّروا عقاب الله وثوابه ووعيده[٢] .

فإذا هم مبصرون : فإذا هم مبصرون هدى الله وبيانه وطاعته فيه فمنتهون عمّا دعاهم إليه طائف الشّيطان[٣] .

وإخوانهم : إخوان الشّياطين[٤] .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٩/١٠٦ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٩/١٠٦ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٩/١٠٧ .

(٤) تفسير الطّبريّ ٩/١٠٨ .

يمدّونهم في الغيّ : تمدّهم الشّياطين في الغيّ ويزيدونهم[1] في الجهل والسّفه[2] والشّرّ[3] .

ثمّ لا يقصرون : عن ابن عبّاس قال : لا إنس يقصرون عمّا يعملون من السّيّئات ولا الشّياطين تمسك عنهم[4] فلا تفتر فيه ولا تبطل عنه[5] .

تقرّر الآية الكريمة الأولى أنّ الّذين اتّقوا الله تعالى وامتلأت قلوبهم بمحبّته جلّ وعلا وخشيته إذا مسّهم طائفٌ من الشّيطان الرّجيم ، وألمّ بهم طيفٌ من اللّعين ، ونزغهم نزغٌ من الطّريد فأغراهم بمبادلة الجاهل جهلاً بجهل ، والسّفيه سفهاً بسفه ، تذكّروا الله سبحانه وتعالى ، وتمثّلوا أوامره جلّ وعلا ونواهيه ، واستحضروا ثوابه تعالى وعقابه ، فإذا هم مبصرون نور الله تعالى وهدايته ، مستمسكون بأوامره جلّ وعلا ، طامعون في ثوابه ، مشفقون من عقابه . إنّ هؤلاء المتّقين هم أولياء الله تعالى .

وفي المقابل هنالك أولياء الشّيطان الرّجيم الّذين تتحدّث عنهم الآية الكريمة الأخرى . إنّ هذه الآية الكريمة تقرّر أنّ إخوان الشّياطين من الكافرين والفاسقين والعاصين يمدّهم إخوانهم الشيطاين في الغيّ ، ويزيدونهم في الضّلال ، ويسهّلون لهم سبل الشّرّ والفساد . وبمقدار مدّ الشياطين إخوانهم من الإنس بالفساد يستجيب لهم هؤلاء الشّياطين من الإنس فيما يقولون وفيما يفعلون . وإنّ الشّياطين لا يُقْصرون في مدّ شياطين الإنس في الغيّ ولا يألون جهداً ولا يدّخرون وسعاً ، وفي المقابل لا يقصرّ شياطين الإنس ولا يألون جهداً ولا يدّخرون وسعاً في تنفيذ ما توحى به لهم شياطين الجنّ من سيّء القول وفاسد العمل .

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٠٨/٩ .
(٢) تفسير ابن كثير ٢٧٩/٢ .
(٣) تفسير ابن كثير ٢٧٩/٢ .
(٤) تفسير الطّبريّ ١٠٨/٩ .
(٥) تفسير ابن كثير ٢٧٩/٢ .

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾

لولا اجتبيتها : هلاّ[1] أحدثتها فأنشأتها[2] .

هذا بصائر من ربّكم : هذا القرآن والوحي الّذي أتلوه عليكم حججٌ عليكم وبيانٌ لكم من ربّكم . واحدتها بصيرة ، كما قال جلّ ثناؤه : هذا بصائر للنّاس وهدىً ورحمةٌ لقومٍ يوقنون[3] .

من بين الّذين استحوذ عليهم الشّيطان واستزلّهم واستذلّهم كفّار مكّة الّذين لم يؤمنوا بالقرآن الكريم ولم يصدّقوا أنّه كلام ربّ العالمين الموحى به إلى خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين ، وطلبوا وراء ذلك مجموعةً من الخوارق المادّيّة تقلّ جميعها عن القرآن الكريم في مجال البيان والإقناع . وحينما لم يأت المصطفى صلّى الله عليه وسلّم بالخوارق الّتي طلبوا قالوا له عليه الصّلاة والسّلام في إنكار : هلاّ أحدثت هذه المعجزات وأنشأتها وأوجدتها من ذاتك ! لقد نسي كفّار مكّة أنّ سنّة الله تعالى قد اقتضت أنّ الآية المقترحة إذا تحقّقت ولم يؤمن المقترحون برسول الله تعالى أن تُستأصل شأفة المكذّبين الكافرين ، كما نسي كفّار مكّة أنّ الآيات إنّما يخصّ الله تعالى بها نبيّه ، ولا يملك النّبيّ سوى أن يتّبع ما أوحى الله تعالى به إليه من آيات . إنّ هذا المعنى هو ما صرّحت به الآية الكريمة ، وإنّ هذه الآيات الكريمات من سورة الحجر[4] عبّرت عن معانٍ أخر . قال تعالى : ﴿ وقالوا يا أيّها الّذي نُزّل عليه الذّكر إنّك لمجنون . لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصّادقين . ما ننزّل الملائكة إلاّ بالحقّ وما كانوا إذاً مُنْظَرين . إنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون ﴾ لقد سبق علم الله تعالى إلى أنّ كفّار مكّة لن يؤمنوا بالآيات المقترحة لو تحقّقت . ولم يشأ الله تعالى

---

(١) تفسير الطّبريّ ٩/١٩ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٢٧٩ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٩/١٠٩ والآية الكريمة هي العشرون من سورة الجاثية وهي بحاجة إلى تصحيح في تفسير الطّبريّ ٩/١١٠ .

(٤) الآيات ٦ ــ ٩ .

تحقيق سنّته فيهم بإهلاكهم إن لم يؤمنوا بما تحقّق من اقتراحات . لذا كان الحديث عن القرآن الكريم في آيات سورة الحجر وفي آية سورة الأعراف .

إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ هذا القرآن الكريم بصائر من ربّكم أيّها النّاس وحججٌ ظاهرة وبراهين واضحة . وانظر إلى لفظة بصائر جميع بصيرة . إنّ القرآن الكريم بصائر نيّرة للنّاس وآيات بيّنات . وانظر إلى القول : ﴿ من ربّكم ﴾ الّذي نفهم منه تربية الله تعالى عباده بنعمه وآلائه الّتي تتوّج بالقرآن الكريم بصائره جلّ وعلا النّيرّات . ومن البيّن أنّ هذا القول : ﴿ هذا بصائر من ربّكم ﴾ يشمل كلّ النّاس مؤمنهم وكافرهم .

ولا يلبث السّياق أن يخصّ المؤمنين المتّقين الّذين استجابوا لله تعالى ولرسوله الكريم فيقرّر أنّ القرآن الكريم هدىً من الضّلالة ورحمةٌ من الله تعالى واسعة لقومٍ يؤمنون بالله تعالى ربّاً وبمحمّد صلّى الله عليه وسلّم رسولاً وبالقرآن الكريم دستوراً .

وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾

تأمر الآية الكريمة المسلمين لله ربّ العالمين بأنّ عليهم إذا قرىء القرآن الكريم أن يستمعوا له وألاّ يتكلّموا وأن يصغوا إليه وألاّ يلغوا فيه . والاستماع الإصغاء[1] ويلاحظ أنّ الآية الكريمة لا يجيء فيها القول : فاسمعوا له ، لأن السّمع يصحّ أن يقف عند السّماع مجرّداً وليس كذلك الاستماع . وإنّه بالنّظر إلى استعمالات القرآن الكريم لجملة استمع يتبيّن فيها الإصغاء وقصد الاستماع .

ولا تقف الآية الكريمة عند طلب الإصغاء للقرآن الكريم حينما يقرأ ، إنّما يردف الاستماع بالإنصات : ﴿ وأنصتوا ﴾ النّون والصّاد والتّاء كلمةٌ واحدة تدلّ على السّكوت . وأنصت لاستماع الحديث ، ونَصَت يَنْصِت[2] والمعنى وأنصتوا له لتعقلوه وتتدبّروه[3] وتَفكّروا فيه وتأمّلوه .

وهكذا يتبيّن أنّنا بصدد مستويين رفيعين تجاه قراءة القرآن الكريم . أن نستمع له

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني « سمع » ٢٤٣ .

(٢) معجم مقاييس اللّغة « نصت » ٤٣٤/٥ .

(٣) تفسير الطّبريّ ١١٠/٩ .

بكلّ قوانا . وأن ننصت له بأن نتفكّر فيه ونتدبّر آياته ونتأمّل في معانيه .

وتبنى الآية الكريمة على الاستماع والإنصات للقرآن الكريم غايةً سامية وهدفاً نبيلاً : ﴿ لعلّكم ترحمون ﴾ بمعنى لعلّ رحمة الله تعالى الواسعة تشملكم .

وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾

بعد الأمر في الآية الكريمة السّابقة بالاستماع للقرآن الكريم والإنصات له وهو الّذي يهدي للطّريقة الّتي هي أقوم ، لعلّ رحمة الله سبحانه وتعالى تشملنا تأمر هذه الآية الكريمة المسلم لله ربّ العالمين الّذي هداه القرآن الكريم إلى الصرّاط المستقيم وأرشده إلى الطّريق الّذي إن سلكه شملته رحمة الله تعالى بمنٍّ من الله تعالى وفضل ، تأمر هذه الآية الكريمة المسلم الّذي له في المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أسوةٌ حسنة أن يذكر ربّه جلّ وعلا بلسانه وأن يستحضره جلّ وعلا بجنانه ، تذلّلاً لله تعالى وتخشّعاً ، تضرّعاً لله تعالى وتواضعاً ، خوفاً من عذابه جلّ وإشفاقاً من عقابه . اذكر ربّك أيّها المسلم لله ربّ العالمين تضرّعاً وخيفةً ودون الجهر من القول وفوق السّرّ ، غداة كلّ نهارٍ وأوّله ، أصيل كلّ نهارٍ وآخره . وما بين هذين الوقتين نهاراً ، وما قبلهما وبعدهما ليلاً ، في كلّ وقتٍ وآن ، في كلّ لحظةٍ وزمان ، وحذار أن تكون أيّها المسلم من الغافلين عن ذكرى واستحضار قدرتي وقهري .

والآية الكريمة من الأدّلة على سهولة الذّكر وإمكان تحقّقه في كلّ الأوقات وسائر الأحوال ، ولهذا كان الذّكر الشّعيرة الوحيدة الّتي لم يضع الشّارع الحكيم نهايةً لها وحدّاً لآخرها .

إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾

من المعروف أنّ الإنسان الّذي كرّمه ربّه جلّ وعلا يقع في رأس قائمة المخلوقات الأرضيّة . وحينما يحقّق الإنسان الهدف الّذي خلقه الله تعالى من أجله ، وهو عبادته جلّ وعلا وحده لا شريك له ، ويتغلّب على الجانب الطّينيّ فيه ، الّذي يشدّه إلى الأرض ويغريه

بالإخلاد إليها ، ويتغلّب فيه جانب النفخة فيه من روح الله تعالى ، يظلّ هذا الإنسان في رقيٍّ مستمرّ وسموّ دائم . ومن العلماء من ذهب إلى أنّ الإنسان باعتباره ثنائيّ الإرادة يصحّ أن يصدر منه كلٌّ من الخير والشّرّ ، وحينما يغلب فيه جانب الخير ويكاد يخلص له جانب الخير يصحّ أن يسمو على الملائكة المفردي الإرداي الّذين لا يعصون الله تعالى ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

وإنّ هذه الآية الكريمة الأخيرة من سورة الأعراف والّتي تشتمل على أولى سجدات القرآن الكريم تقرّر في خطابها للإنسان المسلم لله ربّ العالمين الّذي له في المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أسوةٌ حسنة ، أنّ الملائكة الّذين هم عند ربّه جلّ وعلا لا يستكبرون عن عبادته جلّ وعلا بل يتضرّعون له جلّ وعلا ويتذلّلون ، وهم وراء ذلك يسبّحونه جلّ وعلا ويعظّمونه وينزّهونه عن كلّ ما لا يليق به ولـه دون سواه يسجدون في الصّلاة وفي غير الصّلاة . والمعروف أنّ العبد أقرب ما يكون من ربّه وهو ساجد كما جاء في الحديث الشّريف . والمعروف أنّ الوجه الّذي يقع به السّجود لله ربّ العالمين هو أشرف أجزاء الجسد ، وفي سجود أشرف الأعضاء دليلٌ على سجود ما سوى هذا العضو وخضوعه لبارئه جلّ وعلا خضوعاً تامّاً سرمديّاً . إنّ السّجود بهذا المعنى هو المطلوب من الإنسان المسلم لله ربّ العالمين بل من كلّ إنسان .

ثانيا:
سورة الأنفال ...
حتى نهاية الجزء التاسع

سُورَةُ الأَنفَالِ

ترتيبها ٨ — آياتها ٧٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ
قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ
يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ
رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ
مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾
يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ
وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا
لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ
وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ
﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ
مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ
وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ
عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ
الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ ۚ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾
إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ
سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ
الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ
شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ
عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ
كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ
دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ
بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ
وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ ۖ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ
فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ
تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ
لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ
ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ
وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ
وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ
أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم
مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ
﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ
عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟
ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ
لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ
ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا
قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ
أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا
هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ
وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ
ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ
عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ
بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ
أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ
عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ
يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ
ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ
فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ
كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟
فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ
لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ
ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟
فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

بين يدي التفسير

مِنْ نعوتِ المؤمِنين

وحرص فريق منهم على الأنفال وعلى العير

الآيات (١ — ٨)

من المعروف أنّ الموضوع الرّئيس لسورة الأنفال غزوة بدرٍ الكبرى الّتي كانت يوم الجمعة السّابع عشر من شهر رمضان المبارك في السّنة الثانية من الهجرة ، والّتي نصر الله تعالى فيها المؤمنين بقيادة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم وهم قليلو العدد فقد كان عددهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً بينما كان عدد المشركين تسعمائة وخمسين رجلاً ، قليلو العدّة فلم يكن معهم سوى فرسين اثنين وسبعين بعيراً يعتقبونها ، بينما كان مع المشركين مائةُ فرس وسبعمائة بعير . إنّ المشركين لمّا كانوا قد استولوا ظلماً وعدواناً على كلّ أملاك المؤمنين في مكّة وأموالهم فقد كان عليه الصّلاة والسّلام حريصاً على تعويض المؤمنين بعض ما فقدوا عن طريق اعتراض قوافل قريش التّجاريّة المتّجهة إلى الشّام والعائدة من هنالك . وقد بلغ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم عودة عيرٍ لقريشٍ من الشّام بقيادة أبي سفيان فحثّ النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام المسلمين على اعتراضها والاستيلاء عليها ، فخفّ لهذه المهمّة عددٌ قليلٌ من المهاجرين والأنصار الّذين لم يظنّوا أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم والمسلمين سيقاتلون المشركين بعد نجاة العير ، وكذلك لم يظنّ ذلك المسلمون الّذين بقوا في المدينة . وقد وعد الله تعالى ، ووعده الحقّ ، المؤمنين إحدى الطّائفتين ، العير أو النّفير ، القافلة أو النّصر على المشركين أنّها لهم . وشاء الله تعالى أن تنجو القافلة فقد حاذى بها أبو سفيان ساحل البحر منحرفاً بها عن الطّريق المألوفة ، وشاء الله تعالى أن ينصر رسوله صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين في يوم بدرٍ يوم الفرقان ، في أوّل لقاءٍ حربّي بين المؤمنين وجند الشّيطان . لقد كان المسلمون في بدر حريصين على العير والاستيلاء على القافلة ، وحينما جدّ الجدّ وتأكّد القتال كان منهم الكاره لذلك كما كان منهم بعد النّصر الحريص على الغنيمة لنفسه والّذي لم يقع من نفسه موقع الرّضا التّامّ أوّل الأمر الكيفيّة الّتي وزّعت وفقها الغنائم .

إنّ السّورة الكريمة تبدأ بتقرير سؤال المؤمنين المصطفى صلّى الله عليه وسلّم عن

الغنائم ويكون الجواب من الله تعالى بأنّها لله تعالى ولرسوله صلّى الله عليه وسلّم الّذي وزّعها بين الجميع على السّواء . ويأمر السّياق الّذين آمنوا بتقوى الله تعالى وإصلاح ما بينهم وبطاعة الله تعالى وبطاعة رسوله صلّى الله عليه وسلّم إن كانوا مؤمنين حقّا . ويبيّن السّاق نعوت المؤمنين فهم إذا ذُكِر الله تعالى خشعت قلوبهم وإذا تليت عليهم آيات الله تعالى زادتهم إيماناً إلى إيمانهم وهم يتوكّلون على ربّهم جلّ وعلا ويقيمون الصّلاة ويؤتون الزّكاة ويتصدّقون وينفقون في سبيل الله تعالى . إنّ أولئك هم المؤمنون حقّا ، وإنّ لأولئك درجاتٍ رفيعةً عند ربّهم ومغفرةً ورزقاً كريماً وثواباً عظيماً .

وكما كره بعض المؤمنين الكيفيّة الّتي وزّعت بها الغنائم كره كذلك خروجه وخروج المصطفى صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين من المدينة من أجل القتال ، لذا فإنّ هذا الفريق يجادل المصطفى صلّى الله عليه وسلّم في القتال وقد تأكّد ، وكأنّهم يساقون إلى الموت وهم ينظرون أسبابه الّتي حضرت . ويقرّر السّياق وعد الله تعالى المؤمنين الظّفر بالقافلة أو بالنّصر على المشركين ، كما يقرّر رغبة المؤمنين في الظّفر بالقافلة في حين يريد الله سبحانه وتعالى أن يحقّ الحقّ بكلماته ويقطع أصل الكافرين ، ويحقّ الحقّ بنصر أهله ، ويبطل الباطل بدحر أهله ولو كره المجرمون .

استغاثة المؤمنين ربّهم وإمدادهم بالملائكة في بدر
الآيات (٩ ــ ١٤)

يتحوّل السّياق إلى تقرير استغاثة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين ربّهم جلّ وعلا في بدر فأجابهم بأنّي ممدّكم بألفٍ من الملائكة متتابعين ، ثمّ ارتفع الإمداد إلى ثلاثة آلاف ، ثمّ إلى خمسة آلاف كما نصّت على ذلك سورة آل عمران . ولم يجعل الله سبحانه وتعالى ذلك الإمداد إلاّ بشرى للمؤمنين بالنّصر ، ولتطمئنّ قلوبهم بعد الخوف . وليس النّصر إلاّ من عند الله تعالى العزيز في ملكه الحكيم في صنعه . ومن مظاهر اطمئنان قلوب المؤمنين النّوم الّذي غشيهم ليلة بدر بإذن الله تعالى ، وماء السّماء الّذي نزل عليهم بإذن الله

تعالى ليطهرّهم من الحدثين الأكبر والأصغر ، وليذهب عنهم وسوسة الشّيطان ، وليربط على قلوبهم ويثبّت به الأقدام في ميدان المعركة وأرضه ذات الرّملة الهشّة . في ذلك يوم يوحى الله تعالى للملائكة أنّي معكم بالتّأييد فثبتوا الّذين آمنوا ، سألقي في قلوب الّذين كفروا شديد الخوف فاضربوا منهم فوق الأعناق وأطيروا الرّءوس واضربوا منهم كلّ مفصل وعضو . إنّهم استحقّوا ذلك لأنّهم خالفوا الله تعالى ورسوله صلّى الله عليه وسلّم فنالهم عقاب الله تعالى الشّديد الّذي ذاقوه عاجلاً في بدر والّذي سيذوقونه آجلاً في النّار إن لم يتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحاً . وينهي السّياق المؤمنين عن الفرار من أمام جيش الكافرين الزّاحف ، ويسمح لهم بذلك في إحدى حالتين ، أن يكون الفرار مكيدة ، وأن يكون الفرار للانضمام إلى فئةٍ أخرى مقاتلةٍ من المؤمنين . إنّ من يفرّ من المؤمنين في غير هاتين الحالتين يرجع بغضبٍ شديدٍ من الله تعالى ومأواه النّار وبئس القرار .

والمعروف أنّ الآية الكريمة بنصّها على الزّحف حملت المسلمين بعد ذلك على أن يزحفوا بالجيش في أثناء القتال بعد أن كانوا من قبل يلجأون إلى الكرّ والفرّ ، ضرب العدوّ والهرَب منه ، ومعاودة الضّرْب والكرّ ، الهرب والفرّ ، وهكذا . لقد ثبت أنّ الزّحف أجدى وأنكى .

توجيهات للمقاتلين من المؤمنين ونصر من الله لهم على الكافرين
الآيات (١٥ - ١٩)

يقرّر السّياق أنّ المؤمنين في بدرٍ لم يقتلوا المشركين ولكنّ الله تعالى هو الّذي قتلهم حين أمدّهم بالملائكة ، وأن المصطفى صلّى الله عليه وسلّم الّذي رمى المشركين بحفنةٍ من تراب ليس هو في الحقيقة الّذي رمى وأوصل شيئاً من ذلك التّراب إلى كلّ عيون الكفّار ، ولكنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذي فعل ذلك الإيصال وهو جلّ وعلا الّذي رمى في الحقيقة ، كما يقرّر السّياق أنّ ذلك النّصر من الله تعالى للفئة القليلة من المؤمنين على الفئة الكبيرة من الكافرين ليختبر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بالنّعمة وبالمنحة ليعلم جلّ وعلا

علم ظهور أيشكرون أم يكفرون . إنّ الله سبحانه وتعالى هو السّميع لكلّ قول العليم بكلّ نيّةٍ وفعل . كما يقرّر السّياق أنّ ذلك الفعل بالمشركين سيتبعه أفاعيل أخرى بهم توهن كيدهم وتفلّ حدّهم . وهذا من مظاهر إنباء القرآن الكريم بالغيب . ويتحوّل الحديث لخطاب الكافرين وإخبارهم أنّهم إن يطلبوا نصر الله تعالى للمظلوم فقد جاءهم حكم الله تعالى بنصر المؤمنين، وإن ينتهوا عن كفرهم فهو خيرٌ لهم ، وإن يعودوا لقتال المصطفى صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين سينتقم الله تعالى منهم ولن يغني عنه كثرة أسلحتهم وأعدادهم وأحلافهم وليعلموا أنّ الله سبحانه وتعالى مع المؤمنين .

من نعوت المؤمنين ومن صفات الكافرين وتوجيهات للمؤمنين
الآيات (٢٠ — ٢٩)

يأمر السّياق الّذين آمنوا بطاعة الله تعالى طاعةً مطلقةً وبطاعة رسوله صلّى الله عليه وسلّم طاعةً مطلقةً وينهاهم عن الإعراض عنه عليه الصّلاة والسّلام بمخالفة أمره وهم يسمعون دعوته إلى الله تعالى ويعونها ، كما ينهاهم عن أن يكونوا ككفّار مكّة والمنافقين الّذين يقولون سمعنا وهم لا يسمعون سماع تدبّر .

ويقرّر السّياق أنّ شرّ ما يدبّ على الأرض عند الله تعالى الكافرون الصّمّ عن سماع دعوة الحقّ سماع تدبّر ، البكم عن قول الحقّ ، الّذين لم يستعملوا نعمة العقل أساس التّكليف استعمالاً صحيحاً ، كما يقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى لو علم فيهم خيراً لأسمعهم ، ولو فُرِض أنّه جلّ وعلا أسمعهم سماع وعي لتولّوا وهم معرضون كافرون صادّون عن سبيله جلّ وعلا . ويتحوّل السّياق إلى توجيه المؤمنين فيأمرهم أن يجيبوا الله تعالى ويجيبوا رسوله صلّى الله عليه وسلّم إذا دعاهم إلى ما يحييهم بالإيمان بعد موتهم بالكفر ، ويعلمهم بأنّ الله سبحانه وتعالى يحول بين المرء وقلبه ، فلا يكون إيمانٌ ولا كفرٌ إلاّ بعلم الله تعالى وإذنه ، ويعلمهم بأنّهم إليه جلّ وعلا يوم القيامة يُحْشَرون ، وبأنّ عليهم أن يتّقوا بلاءً من الله تعالى يبتليهم به أجمعين مؤمنين وكافرين ، طائعين وعاصين ، بسبب عدم أمر المؤمنين بالمعروف وعدم نهيهم عن المنكر ، وبأنّ عليهم أن يعلموا أنّ الله شديد العقاب . وفي معرض المنّ على

المؤمنين يذكّرهم السّياق بحالهم في مكّة قبل الهجرة حينما كانوا قليلين مستضعفين في الأرض يخافون أن يأخذهم الكفّار بسرعةٍ على حين غفلةٍ منهم فآواهم جلّ وعلا في المدينة ، ونصرهم في بدر ، ورزقهم من الطّيّبات لعلّهم يشكرون . ولمّا كان أبو لُبابة الّذي أرسله المصطفى صلّى الله عليه وسلّم إلى بني قريظة المحاصرين بناءً على طلبهم واستشاروه لأنّ أهله وولده وماله بين ظهرانَيْهم قد أفشنا سرّاً للمصطفى صلّى الله عليه وسلّم فإنّ السّياق ينهي الّذين آمنوا أن يخونوا الله ورسوله ، وأن يخونوا أماناتهم الّتي قبلوا حملها وهم يعلمون أنّهم يخونون ، ويأمرهم بأن يعلموا أنّما أموالهم وأولادهم فتنةٌ من الله تعالى واختبار فعليهم إيثار المصلحة العامّة على المصلحة الخاصّة ، ويبشّرهم بأنّهم إن يتّقوا الله تعالى يجعل لهم فصلاً وفرقاً بين حقّهم وباطل غيرهم ويكفّر عنهم سيّئاتهم ويغفر لهم ذنوبهم . والله سبحانه وتعالى ذو الفضل العظيم .

مِن مَظاهِرِ سَفه كفّار مكّة
التكذيب بالقرآن والاستهزاء بالعذاب
الآيات (٣٠ — ٣٥)

من مظاهر سفه كفّار مكّة أنّهم إذا سمعوا آي الذّكر الحكيم قالوا قد سمعنا القرآن ووعينا معناه ولو شئنا لقلنا مثله فليس القرآن سوى أكاذيب الأوّلين : ﴿ كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبا ﴾ ومن مظاهر سفههم كذلك أنّهم قالوا ياربّنا إن كان هذا القرآن الكريم من عندك فأمطر علينا حجارةً من السّماء أو ائتنا بعذاب أليمٍ وعقابٍ شديد بدلاً من أن يسألوا الله تعالى الهداية والرّحمة . ولم يعذّب الله تعالى كفّار مكّة لأنّ المصطفى صلّى الله عليه وسلّم بين ظهرانيهم ولأنّهم يستغفرون الله تعالى . ثمّ هاجر المصطفى صلّى الله عليه وسلّم إلى المدينة فبقي الاستغفار الّذي يشاركهم فيه المستضعفون من المؤمنين في مكّة . ثمّ خرج كفّار مكّة إلى بدر وذُهِلوا عن الاستغفار بل سألوا الله تعالى أن يهلك الفريق الظّالم فأهلكهم الله تعالى وعذّبهم في بدر بسبب كفرهم وصدّهم

المؤمنين المتّقين أولياء الله تعالى وأولياء المسجد الحرام عن المسجد الحرام . إنّ الكافرين ما كانوا وقتاً من الأوقات أولياء المسجد الحرام ولا أهله بسبب شركهم ولكنّ أكثرهم لا يعلمون . ويبيّن القرآن الكريم صلاة المشركين عند البيت العتيق فقد كانت صفيراً وتصفيقاً فاستحقّوا العذاب بسبب كفرهم .

أموال الكافرين التي ينفقونها للصدّ عن سبيل الله حسرة عليهم وقاتلوهم أيّها المؤمنون
الآيات (٣٦ - ٤٠)

يقرّر السّياق أنّ الّذين كفروا ينفقون أموالهم في بدرٍ وأحد وفي غيرهما من المعارك والمواقع ليصدّوا عن سبيل الله تعالى فسينفقون تلك الأموال ، ثمّ تكون عليهم ندامةً وحسرة ، ثمّ يُغْلبون ويهزمون في الدّنيا ، ويوم القيامة يُحْشرون إلى جهنّم وبئس المصير . وإنّما يخذل الله تعالى الكافرين ليميز الله تعالى الخبيث من الطّيّب ويفصله عنه ، ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيجعله جلّ وعلا متراكماً متراكباً ويجعله في جهنّم . إنّ أولئك هم الخاسرون . والآيات الكريمات الثّلاث الّتي يختم بها الجزء التّاسع هذا في التّرغيب والتّرهيب . أمّا التّرغيب ففي وعد الكافرين بمغفرة الله تعالى ذنوبهم إن هم آمنوا وعملوا الصّالحات . وأمّا التّرهيب ففي تنبيههم إلى سنّة الله تعالى في الأوّلين بدحر الكفر والكافرين على غرار ما حدث في بدر . فعلى المؤمنين أن يقاتلوا الكافرين حتّى لا يفتن مؤمنٌ في دينه ، وحتّى يكون الدّين خالصاً لله تعالى . إنّ انتهى الكافرون عن كفرهم فهذا هو المطلوب وإن أصرّوا على كفرهم فليعلموا أنّ الله سبحانه وتعالى هو مولى المؤمنين ﴿ نعم المولى ونعم النّصير ﴾ .

التفسير

مِن نعوتِ المؤمِنين

وحرص فريق منهم على الأنفال وعلى العير

الآيات (١ — ٨)

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾

سبب النّزول :

عن أبي أمامة الباهليّ قال : سألت عبادة بن الصّامت عن الأنفال فقال : فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النَّفَل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من أيدينا فجعله إلى رسوله ، فقسمه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بين المسلمين عن بواء . يقول : على السّواء[1] .

يسألونك عن الأنفال : قال ابن عبّاس : الأنفال المغانم[2] والغنائم[3] .

وأصلحوا ذات بينكم : وأصلحوا الحال بينكم[4] وأصلحوا فيما بينكم[5] وحقيقة ما بينكم بالمودّة وترك النّزاع[6] .

يسألك يا محمّد أصحابك عن الغنائم بعد أن نصركم الله تعالى في بدرٍ وأنتم أذلّةٌ لقلّة عَدَدكم وعُددكم بالقياس إلى أعدائكم من كفّار قريش ، قل يا محمّد إنّ الغنائم لله تعالى وللرّسول صلّى الله عليه وسلّم يضعها حيث شاء وقد قسمها المصطفى صلّى الله عليه وسلّم بين المسلمين على السّواء .

وتأمر الآية الكريمة الصّحابة بخاصّة المسلمين بعامّة بأن يتّقوا الله تعالى وأن يصلحوا ذات بينهم وحقيقة ما بينهم بالمودّة وترك النّزاع وأن يطيعوا الله تعالى ويطيعوا رسوله صلّى الله عليه وسلّم طاعةً مطلقةً إن كانوا مؤمنين حقّا .

ويبيّن السّياق بعد ذلك نعوت المؤمنين .

---

(١) السّيرة النبويّة لابن هشام ٦٤٢/١ تحقيق مصطفى السّقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ شلبي .

(٢) صحيح البخاري ٧٦/٦ .

(٣) تفسير الطّبريّ ١١٤/٩ .

(٤) تفسير الطّبريّ ١١٩/٩ .

(٥) تفسير ابن كثير ٢٨٥/٢ .

(٦) الجلالين .

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

الآية الكريمة الأولى تتحدّث عن اعتقاد المؤمنين الصّادقي الإيمان .

والآية الكريمة الأخرى تتحدّث عن أهمّ أعمال أولئك المؤمنين دليلاً على إيمانهم .

والآية الكريمة الثّالثة تتحدّث عن ثواب أولئك المؤمنين .

إنّ المؤمنين حقّاً وصدقاً هم أولئك الّذين إذا ذُكِر الله سبحانه وتعالى وجلت قلوبهم وخضعت جوارحهم وخشعت نفوسهم . وإذا تُلِيَتْ عليهم آي الذّكر الحكيم زادتهم إيماناً إلى إيمانهم ، لذلك فإيمانهم دائماً في ازدياد وإيقانهم في نموّ . وهم وراء ذلك على ربّهم جلّ وعلا وحده لا شريك له ، مربّيهم بنعمه وآلائه ، يتوكّلون ، وبه جلّ وعلا وحده لا شريك له يستعينون .

أمّا الأعمال الصّالحة الّتي يقوم بها أولئك المؤمنون حقّاً ، دليلاً على خشية الله تعالى ، وإيمانهم ، وتوكّلهم عليه جلّ وعلا وحده لا شريك له ، فإنّها كثيرة وعلى رأسها إقامة الصّلاة ، الّتي هي عماد الدّين ، بكامل مقوّماتها من أركانٍ وواجبات وسنن وما إلى ذلك ، وممّا رزقهم الله تعالى ينفقون في مجال الزّكاة وفي مجال الصّدقة وفي سبيل الله تعالى وفي مقدّمة ذلك الجهاد في سبيل الله تعالى .

والمعروف أنّ الصّلاة أوضح أركان الإسلام في مجال العبادات والمعروف أنّ الزّكاة أوضح أركان الإسلام في مجال المعاملات .

إنّ الصّلاة الّتي يكون معها العبد وهو ساجد شديد القرب من ربّه جلّ وعلا يتّجه بها العبد مباشرةً إلى بارئه جلّ وعلا . وإنّ الزّكاة والصّدقة يتّجه بهما العبد إلى بارئه جلّ وعلا مروراً بأخيه الإنسان .

والآية الكريمة الثّالثة تقرّر أنّ أولئك الّذين تحقّقت فيهم تلك الصّفات هم المؤمنون حقّاً لهم درجاتٌ رفيعةٌ عند ربّهم جلّ وعلا ومراتب سامية ، ولهم مغفرةٌ للذّنوب الّتي ارتكبوها وتابوا إلى الله تعالى بعدها توبةً نصوحاً ، ولهم عند بارئهم رزقٌ كريم وأجرٌ عظيم وثوابٌ كبير .

وإذا كان من أولئك المؤمنين حقّاً المتّقين صدقاً من لم يقع من نفسه موقع الرّضا أوّل الأمر بل الكراهة نزعُ الغنائم في بدرٍ من أيديهم ، فإنّ من أولئك من لم يقع من نفسه موقع الرّضا بل الكراهة القتال والنّفير بعد نجاة أبي سفيان وفِراره بالعير .

وإلى ذلك أشارت الآيتان الكريمتان التّاليتان .

كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾
يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾

تقرّر الآية الكريمة الأولى أنّ كراهة فريقٍ من المؤمنين انتزاع الغنائم من أيديهم شبيهةٌ بكراهة فريقٍ من المؤمنين إخراج ربّك لك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم من بيتك في المدينة المنوّرة بالحقّ والصّدق إلى القتال . إنّ فريقاً من المؤمنين لكارهون لذلك الخروج ولذلك القتال فقد كانوا حريصين على العير كارهين للنّفير .

والآية الكريمة الأخرى تقرّر أنّ هذا الفريق من المؤمنين الّذي خرج من المدينة المنوّرة من أجل الاستيلاء على عير قريش القادمة من الشّام بقيادة أبي سفيان لذلك هو لم يكن مستعدّاً لخوض المعركة الّتي ما استعدّ لها مادّيّاً ولا نفسيّاً ، الآية الكريمة تقرّر أن هذا الفريق من المؤمنين يجادل المصطفى صلّى الله عليه وسلّم في الحقّ بعد ما تبيّن وفي القتال بعد ما تأكّد[1] متعلّلاً بأنّه لم يخرج من أجل القتال ولهذا هو لم يستعدّ له . وحينما ثبت القتال وتأكّد التحام الجيشين كان حال هذا الفريق من المؤمنين غير المستعدّ مادّيّاً ومعنويّاً للقتال كحال الّذين يساقون إلى الموت صبراً وهم يرسفون في أغلالهم وهم ينظرون بأعينهم الّتي في رءوسهم إلى الموت الّذي حضرتهم أسبابه وتأكّد لهم وقوعه . ويؤكّد السّياق بعد ذلك هذا المعنى .

---

(١) انظر تفسير الطّبريّ ١٢٣/٩ .

وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

وتوّدون أنّ غير ذات الشّوكة تكون لكم : وتحبّون أن تكون تلك الطّائفة الّتي ليست لها شوكة وليس لها حدٌّ ولا فيها قتال أن تكون لكم . أي العير[1] .

واذكر يا محمّد إذ يعدكم الله تعالى ووعده الحقّ إحدى الطّائفتين ، العير وهي القافلة بقيادة أبي سفيان ، أو النّفير وهو القتال والانتصار على قريش بقيادة أبي جهل أنّها لكم . وتوّدون أيّها المسلمون أنّ غير ذات الشّوكة تكون لكم وغير القتال وغير الحرب يكون نصيبكم ، أي العير والقافلة لرغبتكم في المال ولقلّة حماة القافلة الّذين كانوا بين الثّلاثين والأربعين[2] بينما يريد الله سبحانه وتعالى أن يحقّ الحقّ بكلماته ويظهر دين الإسلام على الدّين كلّه ولو كره المشركون ويقطع دابر الكافرين ويستأصل دابر القوم الكافرين وهم المتأخّرون منهم[3] ومن باب الأولى المتقدّمون منهم . ومن كلمات الله تعالى الّتي جاءت قوله تعالى[4] : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنّهم لهم المنصورون . وإنّ جندنا لهم الغالبون ﴾ .

إنّ قطع الله سبحانه وتعالى دابر الكافرين واستئصال شأفتهم ليُحقّ جلّ وعلا الحقّ بإعلاء كلمة التّوحيد وليبطل الباطل بدحر الشّرك وأهله ، ولو كره المجرمون من كفّار قريش وحلفائهم ومن شاكلهم في كلّ زمانٍ ومكان .

يقول ابن الأثير في المثل السّائر[5] بشأن التّكرير : « وإنّما جيء به ههنا لاختلاف المراد ، وذاك أنّ الأوّل تمييزٌ بين الإرادتين ، والثّاني بيانٌ لغرضه فيما فعل من اختيار ذات الشّوكة على غيرها ، وأنّه ما نصرهم وخذل أولئك ألاّ لهذا الغرض » .

---

(١) انظر تفسير الطّبريّ ١٢٣/٩ .

(٢) السّيرة النّبويّة ٦٠٦/١ .

(٣) تفسير الطّبري ١٢٦/٩ .

(٤) سورة الصّافّات ١٧١ ــ ١٧٣ .

(٥) ٣ / ٩ .

اسْتِغَاثَةُ الْمُؤْمِنِينَ رَبَّهُم وَإِمْدَادُهُم بِالْمَلَائِكَةِ فِي بَدْرٍ

الآيات (٩ – ١٤)

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

سبب النّزول :

روى الإمام أحمد عن ابن عبّاس عن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه قال : لمّا كان يوم بدر نظر النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلى أصحابه وهم ثلاثمائة ونيّف ، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألفٌ وزيادة فاستقبل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم القبلة وعليه رداؤه وإزاره ثمّ قال : اللّهمّ أنجز لي ما وعدتني ، اللّهمّ إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبداً . قال : فما زال يستغيث ربّه ويدعوه حتّى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فردّاه ثمّ التزمه من ورائه ثمّ قال : يا نبيّ الله كفاك مناشَدَتُك ربَّك فإنّه سَيُنْجِز لك ما وعدك فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ إذ تستغيثون ربّكم فاستجاب لكم أنّي ممدّكم بألفٍ من الملائكة مردفين ﴾[1] .

مردفين : يردف بعضهم بعضاً ويتلو بعضهم بعضاً[2] متتابعين[3] .

وجه الشّبه كبيرٌ بين هاتين الآيتين الكريمتين وبين الآيات الكريمات الثّلاث ١٢٤ ــ ١٢٦ من سورة آل عمران الّتي سبق لنا بفضل الله تعالى ومنّه أن درسناها في الجزء الرّابع من سلسلة التّفسير البسيط هذه[4] وهذه هي الآيات الكريمات الثّلاث قال تعالى : ﴿ إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدّكم ربّكم بثلاثة آلافٍ من الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا وتتّقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربّكم بخمسة آلافٍ من الملائكة

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٨٩ وانظر السّيرة النّبويّة ١/٦٢٧ حلبي .

(٢) تفسير الطّبريّ ٩/١٢٧ .

(٣) تفسير ابن كثير ٢/٢٩٠ والجلالين .

(٤) التّفسير البسيط ٤/١٠٧ ، ١٠٨ .

مسوِّمين . وما جعله إلاّ بشرى لكم ولتطمئنّ قلوبكم به . وما النّصر إلاّ من عند الله العزيز الحكيم ﴾ :

إنّ معنى آية سورة الأنفال الأولى : اذكر يا محمّد إذ تستغيثون ربّكم وتسألونه الغَوْث[1] وتطلبون منه النّصر على عدوّكم وتستجيرون به من عدوّكم[2] فاستجاب لكم وأجاب دعاءكم[3] أنّي ممدّكم ومعينكم[4] بألفٍ من الملائكة مردِفين متتابعين .

والمعروف أنّ هذا الإمداد ارتفع إلى ثلاثة آلافٍ من الملائكة مُنْزَلين ، ثمّ ارتفع إلى خمسة آلافٍ من الملائكة مسوِّمين مُعْلَمين ، والسّيما العلامة ، عن هشام بن عروة قال : نزلت الملائكة يوم بدرٍ على خيلٍ بلق عليهم عمائم صفر ، وكان على الزّبير يومئذٍ عمامةٌ صفراء[5] .

والآية الكريمة الأخرى تبيّن أنّ الله سبحانه وتعالى ما جعل الإمداد بالملائكة إلاّ بشرى للمؤمنين بالنّصر ولتطمئنّ به قلوبهم بعد خوف وتهدأ بعد اضطراب وما النّصر إلاّ من عند الله تعالى . إنّ الله سبحانه وتعالى عزيزٌ في ملكه حكيمٌ في صنعه . ووجه الشّبه الكبير واضحٌ بين هذه الآية الكريمة وآية سورة آل عمران السّادسة والعشرين بعد المائة .

إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾

إذ يغشّيكم النّعاس : إذ يُلْقى عليكم النّعاس[6] .

---

(١) الجلالين .
(٢) تفسير الطّبريّ ١٢٦/٩ .
(٣) تفسير الطّبريّ ١٢٧/٩ .
(٤) الجلالين .
(٥) تفسير الطّبريّ ٥٤/٤ .
(٦) تفسير الطّبريّ ١٢٩/٩ .

أَمَنةً : أماناً من الله لكم من عدوّكم أن يغلبكم[1] وأمناً ممّا حصل لكم من الخوف[2] وأماناً أمّنهم به من خوفهم الّذي حصل لهم من كثرة عدوّهم وقلّة عددهم[3] .

ليطهّركم به : ليطهرّ به المؤمنين لصلاتهم لأنّهم كانوا أصبحوا يومئذٍ مجنبين على غير ماء[4] والماء طهّرهم من حدثٍ أصغر أو أكبر[5] .

ويذهب عنكم رجز الشّيطان : أي من وسوسة أو خاطر سيّء[6] وكان الشّيطان قد وسوس إليهم بما حَزَنهم به من إصباحهم مجنبين على غير ماء[7] ومن كونهم ظمأى والمشركون على الماء[8] .

ويثبّت به الأقدام : كان المؤمنون على رملةٍ هشّاء فلبّدها المطر حتّى صارت الأقدام عليها ثابتةً لا تسوخ فيها[9] .

عن عليّ رضي الله عنه قال : ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ، ولقد رأيتنا وما فينا إلاّ نائم إلاّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يصلّي تحت شجرةٍ ويبكي حتّى أصبح[10] وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنّه قال : النّعاس في القتال أَمَنةٌ من الله ، وفي الصّلاة من الشّيطان[11] وجاء في الصّحيح أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لمّا كان يوم بدرٍ في العريش[12] مع الصّدّيق رضي الله عنه وهما يدعوان أخذت رسول الله

---

(١) تفسير الطّبريّ ٩/١٢٩ .

(٢) الجلالين .

(٣) تفسير ابن كثير ٢/٢٩١ .

(٤) تفسير الطّبريّ ٩/١٣٠ .

(٥) تفسير ابن كثير ٢/٢٩٢ .

(٦) تفسير ابن كثير ٢/٢٩٢ .

(٧) تفسير الطّبريّ ٩/١٣٠ وتفسير ابن كثير ٢/٢٩٢ .

(٨) الجلالين .

(٩) تفسير الطّبريّ ٩/١٣٠ .

(١٠) تفسير ابن كثير ٢/٢٩١ .

(١١) تفسير ابن كثير ٢/٢٩١ .

(١٢) العريش شبه الخيمة يستظلّ به . وقد اقترح سعد بن معاذ رضي الله عنه بناءه لرسول الله صلى الله عليه وسلّم في بدر . السّيرة ١/٦٢٠ .

صلّى الله عليه وسلّم سِنةٌ من النّوم ثمّ استيقظ متبسّماً فقال : أبشر يا أبا بكر هذا جبريل على ثناياه النَّقْع[1] ثمّ خرج من باب العريش وهو يتلو قوله تعالى : سيهزم الجمع ويولّون الدّبر[2]

استغاث المؤمنون ربّهم في بدر فاستجاب لهم بإمدادهم بالملائكة وألقى عليهم النّعاس الّذي غطّاهم وشملهم . ومعنى الآية الكريمة : اذكر يا محمّد إذ يغشيّكم النّعاس في بدرٍ ويلقى عليكم النّوم ليلة القتال أمناً منه عزّ وجلّ من الخوف الّذي انتابكم من قلّة عددكم وعُددكم وكثرة عدوّكم عدداً وعدّة .

والله سبحانه وتعالى ينزّل عليكم أيّها المؤمنون من السّماء ماءً بقدرٍ ليطهّركم به من الحدث الأكبر وقد أصبح بعضكم جنباً ومن الحدث الأصغر فتغتسلوا وتتطهّروا وتتوضّئوا وتدّخروا ، وليذهب عنكم بنزول الماء من السّماء رجز الشّيطان ووسوسته من إصباحكم مجنبين وليس عندكم ماء ومن كونكم ظمأى وليس كذلك المشركون ، وليربط على قلوبكم ويدخل الطّمأنينة إليها حينما تعلمون أنّ الله سبحانه وتعالى دائماً وأبداً معكم فها هو ذا الماء ينزل من السّماء ، وبقدر نفع الماء المسلمين كان أذاه للمشركين وإلى ذلك أشار قوله تعالى في ختام الآية الكريمة : ﴿ ويثبّت به الأقدام ﴾ والمعنى : وينزّل عليكم من السّماء ماءً للأغراض المذكورة وليثبّت به الأقدام .

وتفسير ذلك أنّ المؤمنين كانوا بالعدوة الدّنيا من الوادي حيث الرّمل الهشّ ففي نزول الماء تثبيتٌ لذلك الرّمل وتثبيتٌ للأقدام ، وأنّ الكافرين كانوا بالعدوة القصوى أي العليا وفي الجبل المقابل للمؤمنين ، ففي نزول الماء زلزلةٌ لأقدام الكافرين لأنّ أرض الجبل المنحدرة أصبحت زَلِقةً لا يثبت عليها قدمٌ ولا حافر .

وهكذا كان المطر نعمةً للمؤمنين ونقمةً على الكافرين .

وإلى موقع كلٍّ من المؤمنين والكافرين والعير أشارت الآية الكريمة من سورة الأنفال[3] قال تعالى : ﴿ إذا أنتم بالعُدْوة الدّنيا وهم بالعُدْوة القُصْوى والرّكب أسفل منكم ﴾ لقد كان أبو سفيان بمحاذاة البحر جهة الغرب ، والمؤمنون جهة الشّرق ، والمشركون بينهما .

---

(١) الثّنايا أسنان مقدّم الفم ، ثنتان من فوق وثنتان من أسفل . والنّقع : الغبار

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٢٩١ والسّيرة النّبويّة ١/٦٢٧ .

(٣) الآية ٤٢ .

إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾

سألقي في قلوب الّذين كفروا الرّعب : فطن العلماء بشأن الرّعب إلى ثلاثة معانٍ ، الخوف والامتلاء والانقطاع[1] وقد عبّر الأصفهانيّ[2] عن هذه المعاني بالقول : « الرّعب : الانقطاع من امتلاء الخوف ... ولتصوّر الامتلاء منه قيل : رعبت الحوض ملأته . وسيلٌ راعبٌ يملأ الوادي . وباعتبار القطع قيل: رَعَبْت السّنام قطعتهُ » .

فاضربوا فوق الأعناق : فاضربوا الأعناق ، واضربوا الرّءوس[3] .

واضربوا منهم كلّ بنان : واضربوا أيّها المؤمنون من عدوّكم كلّ طرفٍ ومفصل من أطراف أيديهم وأرجلهم . والبنان جمع بنانه وهي أطراف أصابع اليدين والرّجلين[4] .

ذلك بأنّهم شاقّوا الله ورسوله : خالفوهما فساروا في شقّ وتركوا الشّرع والإيمان به وأتْباعه في شقّ . ومأخوذٌ أيضاً من شقّ العصا وهو جعلها فرقتين[5] .

يتحوّل الخطاب إلى المصطفى صلّى الله عليه وسلّم في القول : ﴿ إذ يوحى ربّك ﴾ والمعنى : اذكر يا محمّد إذ يوحى ربّك إلى الملائكة أنيّ معكم بالتّأييد والعون فثبّتوا

---

(١) انظر معجم مقاييس اللّغة « رعب » ٢/٤١٠ .

(٢) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني « رعب » ١٩٧ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٩/١٣٢ .

(٤) تفسير الطّبريّ ٩/١٣٢ .

(٥) تفسير ابن كثير ٢/٢٩٣ .